الفلسفة ومرآتها المكسورة: وهم الإيديولوجيا.

د. حيرش سمية

قسم العلوم السياسية، جامعة وهران

" لقد رأي زرادشت "نيتشه" في المنام طفلا كان يحمل مرآة، صرخت وانقبض قلبي: لأن ما شاهدته لم يكن أنا، بل كان وجها مكشرا، ضحكة ساخرة للجن (démon)، إذاك فهمت جيدا، وكما يضيف "زرادشت" معني حلمي ذاك ونذره بأن مذهبي في خطر"[1].

تمهيد:

المرآة المكسورة (Le miroir brisé):

إننا لا نقصد هنا بالمرآة المكسورة، المرآة المرتبط انكسارها، لدي بعض الأمم والشعوب، بنذور النحس والشؤم والمصائب[2]، بل عن المرآة المكسورة التي نقصدها هنا، هي مرآة الأقرب إلي المرآة الأسطورية الإغريقية (أي مرآة الميتولوجية) التي جعلتهم، خاصة في أثنا(Athènes) يذكرون أمامها الآلهة باستمرار، عند مواجهتهم للأقدار (Le destin)، وهو الذكر الذي لم يحل بالرغم من ذلك، دون الأثينيين ودون التدخل في سير تلك الأقدار... وفي تقرير الوجهة التي يجب أن تأخذها[3].

بذلك أبدع الأثينيون، والإغريق التراجيديا (La tragédie) التي شكلت حدثا اجتماعيا وثقافيا وأخلاقيا وجماليا فريدا... وبذلك أيضا ابتكر الإغريق كذلك، وفي الوقت نفسه، القانون (Le droit) المكتوب، الوضعي والمشترك (Nomos)، القادر وحده علي حل الخلافات بين الناس وعلي اتخاذ القرارات الجماعية والحرة التي يخضع لها كل الناس.

فإن المرآة المكسورة التي نقصدها مرآة أقرب إلي مرآة "نيتشه" الديونوسيزية (Le miroir dyonyssisien) نسبة إلي الإله (Dionysos) إله الخمر، ونشوته الحيوانية.

غير هذه المرآة الأثينية المكسورة هي ذاتها المرآة التي سطا شفافيتها وبريقها... العديد من الممارسات السلبية المعنوية منها والمادية فهي مرآة "سقراط" الذي أعدم، ظلما باسم نفس الديمقراطية، ومرآة أثنا العبيد... ومرآة "السفسطائيين" و"الشكاك الإطلاقيين" خاصة الذين خلفوا بعد هزيمة أثنا أمام طروادة فلاسفتها الأوائل، من الطبيعيين والذريين وغيرهم... وهي الهزيمة التي يعد من ابرز نتائجها "أفلاطون" وفلسفته المضادة للديمقراطية وللمرأة[4]. إنها مرآة عالم مقلوب...أو معكوس في النهاية. **إن هذه المرآة... الأخيرة هي الأقرب لما نقصده بمرآة الحقيقة المكسورة. ولأنها كذلك فإنها تدل بالتالي علي واقع إنساني معكوس في الحقيقة....**

وإذا كنا لن نتوقف هنا لتحليل أسباب مثل هذا الانكسار، أو الكسر، الذي أصاب مرآة الفلسفة ، فإننا نلاحظ أن هذه الوضعية قد تعود فعلا، إلى علاقة بين الفلسفة بالإيديولوجيا، هو أن جذور يهما ليست واضحة إذ قد يدخل شيء من الفلسفة في الإيديولوجيا، وشيء من الإيديولوجيا في الفلسفة.

الفلسفة والإيديولوجيا (العقيدة والحقيقة):

إن الإديويولوجيا والفلسفة تتحدان في الجذور المشتركة، وتختلفان تاريخيا، ومنهجا... حيث أن رحلة الفلسفة، أم العلوم، من المجرد إلي الملموس، ومن الملموس إلي المجرد، لا تضاهيها تاريخيا رحلة الإيديولوجيا التي استنبطت بدورها من الاعتقادات الكبرى لحياة الأمم والشعوب الأمر الذي تجعلهما صادرتين "عن الهم الإنساني المشترك، الهم الأصلي المتجدد والمتسائل: بأي وعي يسعد الإنسان، يحقق يتغير...وهو يفسر المكان بزمانه الخاص؟"[5]

من هنا كانت الإيديولوجيا مجددة للإنسان ولفكره هذا، وبالرغم من رفعها لشعار التفسير وذلك لأنها لا تستهدف سوي إبقاء الإنسان علي وضع سياسي واجتماعي لا يتغير.

ولأن الوعي الفلسفي مثل الوعي الإيديولوجي، يهدف، كل حسب طريقته، إلي التحقق الإنساني الأفضل، فإن مثل هذا الهدف يفرز العديد من الإشكالات بين الإيديولوجيا وبين الفلسفة.

ذلك أنه إذا كان الوعي الفلسفي يطمح إلي وعي الأعماق، فإن الإيديولوجيا تطمح إلي وعي عام، لا يتآخي مع الفلسفة إلا ليناقضها... وأحيانا ليقابلها بل وليقتلها.

تعني الإيديولوجيا (L'idéologie)، الكلمة ذات الأصل اليوناني والمكونة من فكرة (Idée) ومن لوغوس (Logos)، علم الأفكار (La science des idées) والإيديولوجيا مصطلح... ابتكره حديثا "ديسيتوت ديتراسي" (Destitut De Tracy) ت1836[6] سنة 1853... ويقصد به، علم الأفكار السياسية والاجتماعية خاصة وقد تأثر "دي تراسي" بنظرية الفيلسوف الإنجليزي "جون لوك" (J. Locke) (ت 1704) التجريبية، كما تأثر بمذهب الفيلسوف الفرنسي "كوندياك" (Condillac) (ت1780) الذي يرد كل معرفة أو إدراك إلى أصول حسية بحتة. لقد أراد "دي تراسي" من خلال هذا التعريف للإيديولوجيا تجاوز" كلمة ومفهوم علم النفس الذي ينطوي علي مدلول روحي وديني وصولا إلي تعريف لها أقرب إلي العقلانية".

لذلك يقول عن الإيديولوجيا " بأنها تخلق، أو تولد، في أجواء لا تنتجها إلا أفكارنا من علاقاتها الداخلية، وهي الأفكار التي هي أشبه في النهاية بمنطقة جغرافية شاسعة ومتنوعة المناظر والتضاريس والأجزاء والطرقات، لها وكلها ذات أصل واحد بل ونقطة الانطلاق الواحدة وهي الطرقات التي تتكفل الإيديولوجيا بقيادة الناس فيها...".

وقد استخدم "دي تراسي" كلمة إيديولوجية بمفهوم أوسع وأشمل باعتبارها علم دراسة الأفكار والمعاني كما هي في الواقع المحدد تاريخياً، ليست الأفكار في ذاتها، بل لذاتها في معانيها وفي تعبيراتها وأساليبها وتظاهراتها واستخداماتها ودلالاتها في مجتمع معين وفي مواقف اجتماعية محددة وفي سياق حضاري ثقافي محدد[7].

ولأن مفهوم الإيديولوجيا قديم، نسبيا، فإنه أخذ بالتالي العديد من التعاريف، نظرا لارتباط هذه الأخيرة المباشر بالسياسية وبالمجتمع، وبتغيراتها التي لا تتوقف.

إذا كان الواقع الاجتماعي هو المصدر الأول والحقيقي لحركة الأفكار، ومن ضمنها الإيديولوجيا والفلسفة والأفكار الحاملتين لها، فإن الفلسفة تظل، بالرغم من بعض التشابه بينها وبين الإيديولوجيا مختلفة، عن هذه الأخيرة أي عن الإيديولوجيا من خلال العديد من التعاريف التي أعطيت لكل من الايديولوجيا ومن الفلسفة عامة.

لقد أعطيت للإيديولوجيا، وللفلسفة كذلك، العديد من التعاريف، التي جعلت متعدد مفهومها، مثل مفهوم الثقافة ، ومتوقفا علي الزاوية الخاصة التي ينظر كل منها إليها...

من هنا صعوبة الخروج، بتعريف للإيديولوجيا، يقبله كل الناس. إن نفس الصعوبة تصدق على الفلسفة وتعريفها.

وذلك ما يفسر، وكما يلاحظ "ريمون ارون"[8] (Raymond Aron) (1905-1983) أحد المدافعين عن الليبرالية الجديدة، "لماذا استعملت، وتستعمل، كلمة إيديولوجيا، تارة بمعني حيادي، وتارة بمعني الإطراء، وتارة أخري، بمعني الهجاء متأرجحة بذلك، وكما يضيف، بين الدلالة الهجائية وبين الدلالة التبريرية".

علي أن الإيديولوجيا تظل مع ذلك، وبالرغم من تعدد تعاريفها، مرتبطة، بالوهم (L'illusion) وبالطوباوية (L'utopisme)، كما يلاحظ "كارل مانهيم" (K. Mannheim)[9] (ت1947)، وغيره من الماركسيين، حيث أن كلا من الوهم ومن الطوباوية نتيجتين متشابهتين لمثل ذلك الوعي الخاطئ(La Fausse Conscience)، وهو الوعي الذي لا يوظفه البعض من الإيديولوجيين إلا انطلاقا من الماضي، وبهدف حفظ الكيان السياسي والاجتماعي، في حين أن الطوباوية، أساسا، ولوج، خيالي، إلي المستقبل... ودعوة إليه...

وإذا كنا لن نتوقف كثيرا هنا عند هذه المقارنة بين الإيديولوجيا والوهم والطوباوية، فإننا نشير مع ذلك إلي أن الطوباوية والوهم قد يكونان فرديان، (نتيجة لمرض نفسي)،في حين أن الإيديولوجيا لا تكون، ولا تتجسد إلا جماعيا.

نعود الآن إلي تعدد تعاريف الإيديولوجيا، بل ، لنقول أن في مثل ذلك التعدد ما قد يفسر الالتقاء بين مثل هذه التعاريف وبين الإيديولوجيات المختلفة...حول بعض القضايا وذلك مثل التقاء الرأسمالية والماركسية في الاهتمام بالملكية الفردية وبدور الدين وبالدولة، والتقاء كل من الفاشية والستالينية (Le Stalinisme) في الحكم الكلياني (Le Totalitarisme) والديكتاتوري، المناهض لكل حرية مهما كانت.

فالإيديولوجيا كما يعرفها "فريدريك انجلز" (F. Engles)[10] (1820-1895) صيرورة يقوم بها الفكر (المزعوم) عن وعي بلا شك، ولكن بوعي خاطئ مع ذلك. أما القوي الحقيقية التي تحركه، فتظل خفية عليه، وإلا فإننا لا نكون تجاه صيرورة إيديولوجية أبدا.

وهكذا فإن المفكر يتخيل قوي محركة غير صحيحة أو صحيحة في الظاهر. ولما كانت هذه الصيرورة عقلية أو فكرية، فإن صاحبنا يستخلص منها مضمون الفكرة الخالصة وصورتها، سواء أكان ذلك من تفكيره الخاص أم من تفكر من سبقه.

يري ماركس (K. Marx)[11] (1818-1883) "أن تاريخ الطبيعة، أو ما سمي بالعلوم الطبيعية، لا يهمنا، بل علينا أن نهتم بتاريخ الناس، إذ إن الإيديولوجيا كلها تقريبا، إنما ترد، إما إلي تصور خاطئ لهذا التاريخ، وإما إلي عملية تجريدية كاملة لهذا التاريخ".

يحصر "رودنسون" (M. Rodinson)[12] وظيفة الإيديولوجيات في تقديم توجيهات للعمل الفردي أو الجماعي". كما يعرفها"جان مونري" (J. Monnoret)"[13] أن الإيديولوجيا نوع من التفكير مشحون بالعاطفة إلي أبعد حد، لكن كلا من هذين العنصرين يفسد الآخر".

أما "ياسبرز" (K. Jaspers)[14] (ت1969)، فيؤكد "أن الإيديولوجيا مركب من الأفكار أو التصورات يحسبه صاحب العلاقة تأويلا للعالم، أو لموقفه الخاص، تأويلا يصور له الحقيقة المطلقة، ولكن علي صورة وهم يبرر به نفسه، ويتنكر، ويتخفي بصورة أو بأخرى، ولكن من أجل مصلحته المباشرة. فإذا نظرنا إلي فكر ما، ورأينا أنه إيديولوجي، فهذا يعادل القدرة علي الكشف عن الخطأ وهتك حجاب السوء. وإذا قلنا إن هذا الفكر إيديولوجي، فهذا يعني أننا نأخذ عليه أنه كاذب، وغير شريف. ولا مجال لاتهام الفكر الإيديولوجي بأكثر من هذا"

ويرى جان مينو (Jean Meynaud)[15]، أن الإيديولوجيا تعكس اهتمام الإنسان بمحاولة تكيف الوسط الاجتماعي مع مسيرة التاريخ، لعالم يصنع بدون مثل ذلك الوسط... بل ضده".

تلك نماذج من تعاريف الإيديولوجيا، وهي التعاريف التي يلاحظ البعض من الباحثين، من أمثال "لوسيان غولدمان" (Lucien Goldmann)..." أن النظرة الكلية للعالم تنقصها كلها"ولأنها كذلك فإن الإيديولوجيا، لا تاريخية (antihistorique) نتيجة لهذه النظرة الجزئية من طرفنا للعالم، ونتيجة كذلك للطابع الدوغمائي (Dogma) الذي يحكمها ويبعدها بالتالي ، لا عن حركة التاريخ فحسب، بل وعن الحقيقة".

من هنا مناوئتها للتغيير وللتقدم حيث أن التغيير والتقدم اللذين تسمح بهما هما التغيير والتقدم الماديين فقط كما هو الحال بالنسبة للإيديولوجيا الماركسية فضلا عن الإيديولوجيا الستالينية.

لأن الإيديولوجيا، هي المقابل المعكوس للطوباوية، فإنهما لم تتأثر، عكس الفلسفة، بالتطورات العلمية التي شهدها العالم خاصة في نهايات القرن الماضي وبدايات القرن الحالي (الحادي والعشرون من تاريخ الإنسانية) ولم تتطور بالتالي كثيرا نتيجة لتطوره.

ولم يزد الطابع الجزئي... اللاعقلاني، الجامد، والمجمد للبعض من الإيديولوجيات سوى إبعاد لها عن العقلانية وعن العلم بالتالي وعن التاريخانية (L'historicisme).

لكل ذلك فإنه إذا كان العلم، ومهما كانت درجة تقدمه، لا يمكنه إلا أن يتأثر بخطاب الإيديولوجيا، وإذا كان قد ينصت أحيانا لجدلها... ولمجادلاتها فإنه لا يتأثر بها ولا يتوه وسط تهويماتها وصراعاتها تلك. حيث أن العلم يؤلف وكما نعلم، نشاطا فكريا حرا ومستقلا عن الإيديولوجيا، وإن كان لا يلغيها، ذلك ما يؤكد استمرار الناس في التمسك بعقائدهم، لمدة غير قصيرة من الزمن، بالرغم من تقدم العلم... وآثاره، وهذا مثل استمرار الناس، بالأمس، في الاعتقاد في ثبات الأرض، بالرغم من اكتشافات كوبيرنيكوس (Copernic) العلمية... واستمرار آخرين في التأكيد علي استحالة وصول الإنسان إلي القمر، بالرغم من أن ذلك تحقق فعلا، وعلي مرآي من جميع العالم منذ سنة 1969.

وهذا يعني أن الإيديولوجيا تحيا بأفكارها الخاصة والمستقلة عن غيرها من الأفكار الأخرى.

من هنا مناوأة الإيديولوجيا للحقيقة، وفي مقدمتها الحقيقة الفلسفية، باستثناء الحقيقة العلمية المادية منها بصورة خاصة.

نلاحظ هنا أن هناك مجموعات من الإيديولوجيا، التقليدية، والصناعية والدينية أو المعتدلة له والمتطرفة والسياسية والاجتماعية والفاشية والليبرالية والديمقراطية والتقدمية الاجتماعية الخ.

إن ذلك يعني أن كل إيديولوجية، مهما تكن الجهود التي تبدلها لتصبح مقبولة عقليا، إنما هي عملية انتقاء بعض العناصر من مجموعات نظرية مختلفة، والتأليف بينها لينشأ عن ذلك مجموعة جديدة منسجمة. ولنقل علي سبيل المثال، إن الماركسية تفخر بأن تكون سليلة الهيجلية الألمانية، والاقتصاد الانجليزي، والاشتراكية الفرنسية.

كما أن الفلسفة كذلك بحث عقلاني يهدف إلي فهم الإنسان والعالم وإلي تفسير وجود كل منهما[16]. إن هذه النزعة التفسيرية للفلسفة هي التي تميزها عن الإيديولوجيا العلم".

فالفلسفة، إلي حد ما، معرفة عقلانية بالمعني الواسع للعقلانية وهي في الوقت نفسه معرفة لا تخلو من عاطفة، لأن صاحبها يوصف أولا بأنه "محب للحكمة" قبل يوصف بأنه عقلاني والحب عاطفة، قبل أن يكون عقلا، هذا إن لم يكن مضادا لهذا الأخير تماما.

ولعل هذا هو ما قصده، "هنري غوييه" (H.Gouhier) حين قال "إن غاية الفلسفة ومرادها هي العقلانية، (Le rationnalisme) التي تشكل الصفة الأساسية لها. فالعقلانية مثلها والمعقلنة (La rationnalisation)، حياتها، فكلماتها قد تكون غير جذابة ولكنها كلمات يحيل معظمها علي الفعل، بصورة مباشرة، أو غير مباشرة".

فالعقلانية والتأمل والروحانية (Le spiritualisme)، لا تجعلها تضحي بالرغم من ذلك، بإرادتها للحقيقة وبالعبقرية الحية لصاحبها، وبرغبته في الانتصار الفعلي اللذان يشكلان روح كل فلسفة وكل فيلسوف حقيقي.

وهذا ما حاول "هيغل" (Hegel) (ت1831م)، تلميذ "كانط" فعله، عندما ارتفع من خلال مثاليته العقلانية بالحقيقة إلي آفاق العقلانية أو العقلنة، المجردة والدينامية، المتجاوزة للتاريخ باعتبار الحقيقة مثل الفكرة (L'Idée, La Conscience)ظاهرة ديناميكية جدلية أبدية وهادفة إلي التطابق في النهاية مع الحرية التي تمثل جوهر الوجود والهدف النهائي والأعلى للتاريخ .

إن هذا المفهوم المثالي، العقلاني، المجرد والمطلق للحقيقة، باعتبارها، صيرورة، أي ظاهرة دوما في طريق التطور والاكتمال، الذي يولد ويتواري أمامه كل حقيقة يقينية بالتالي وباستمرار. هو ما سيرفضه بدوره تلميذه "كارل ماركس" (Karl Marx)(ت1883 م) الذي سيربط الحقيقة المتولدة عن جدلية هيغل بالفعل (Praxis) في الواقع الإجتماعي معيبا بالتالي علي الفلاسفة أنهم لم يفعلوا سوي التنظير للعالم في حين أن المهم هو تغييره.

وهذا مافعله نيتشه (F Nietzsche) (ت 1900) أحد رموز الحداثة أن الحقيقة، باعتبارها وليدة الفكر أساسا. ليست مجرد انعكاس للواقع بل إنها مجرد مظهر زائف له، فيجب أن تعبر بذلك عن "إرادة القوة"(La volonté de puissance) معارضا بذلك لا مفهوم "كانط" أو "هيغل" فحسب، بل ومفهوم أستاذه "شوبنهاور" (Schopenhauer) (ت1860 م) الذي اعتبره مناديا وداعيا مثل المسيحية إلي أخلاق العبيد " أي إلي قبول بكل ما في العالم أو الوجود "في حين أن الحقيقة النيتشوية هي ما يضاعف لدي الإنسان نبض الحياة والقوة".

وإذا كان رد فعل "هوسرل" (E Husserl) (ت1938 م) علي هذا المفهوم النيتشوي للحقيقة، سيكون بربطها بالوعي الفردي المعاش وليس بالعقل أو بالقوة. فإن رد فعل "هيدغر"(Heidegger) (ت 1976 م) سيكون بالمطالبة بالعودة بها إلي الوجود الإنساني في معناه الأنطولوجي، وذلك من خلال فكرة "الدازاين(Dasein) (الوجود هنا)، حيث أن الحقيقة في نظره توجد في مثل هذا " الوجود هنا"، ما دام هذا الأخير لا يتمكن من التعبير عن ذاته وعن الكشف عن حقيقته. ولأن مثل هذا الوجود هنا يحتاج إلى من يقوم بذلك بدله، وهو الإنسان، فإن هذا الأخير هو الكائن الوحيد الذي تتجلى فيه حقيقة الوجود.

إن نفس الحقيقة تصدق تقريبا علي "هنري برغسون" (H Bergson)(ت 1941) وعلي مفهومه للحقيقة ، وهو المفهوم الذي يري أن الحقيقة وليدة الشعور الحدس (L'Intuition) في مفهومه الذاتي والحركي الأقرب إلي المفهوم الصوفي.

أما "الوضعية المنطقية" (Le Néo Positivisme) المحدثة ممثلة في مدرسة فيينا فإنها ستربط مفهوم الحقيقة بالمفاهيم اللغوية ومدي قابليتها علي الدلالة عن الأشياء الواقعية الموجودة في العالم.

هكذا أخذت الفلسفة خاصة تدريجيا خاصة منذ نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين منحا جديدا أقرب إلي المنحي التجريبي العلمي والعملي يساعدها في ذلك التقدم الذي أحرزته العلوم المختلفة (الفيزياء والبيولوجيا والرياضيات والكيمياء والتكنولوجيا وغيرها من العلوم الأخرى) منذ عصر النهضة الأوروبية وإلي اليوم.

إن الفلسفة، كما يلاحظ "بريهيه" (E.Bréhier)، في جوهرها، اعتراض مستمر من قبل الروح الإنسانية ضد كل محاولة آلية يراد بها إدماج الوجود البشري في دائرة مغلقة من التنظيمات الصناعية، أو الاصطناعية، والأجهزة المادية والتحديدات الموضوعية.

وهناك حقيقة أخري، وهي متولدة عن الأولي، وهي المتمثلة في أن الفلسفة التي كانت وراء كل المعاركة السياسية والاجتماعية والإنسانية تظل ، بالرغم من حملات التهوين لها، ومن الإعلانات العديدة عن موتها، وبالرغم من الاتهامات والانتقادات العديدة لها بالتوقف عند مجرد التأمل للعالم، بدلا من العمل علي تغييره (ماركس) تبقي بذلك لازمة للإنسان ولتفكير في مساره وفي مصيره، في حياته وفي موته[17].

من الضروري أن نؤكد، حينما نتطرق للعلاقة بين الفلسفة وبين العلم بالذات، أن الفلسفة كانت محتوية للعلم وإن هذا الأخير كان مندمجا فيها، مثل غيره من بقية العلوم والمعارف في هذه الفترة، التي كانت فيها الفلسفة أم العلوم، كل العلوم.

وذلك يعني أن العلم (La science) لم يكن يتميز في هذه الفترة، مثل العلم الحديث، عن الفلسفة، بالقياس(La mesure)، والتحقق (La vérification) والمناهج الصارمة(Les méthodes rigoureuses)...الخ... وهي المميزات التي لم يعرفها العلم إلا في العصور الحديثة.

وكان يجب انتظار النهضة الأوروبية، وبداية ميلاد العلم الحديث، لتبدأ مختلف العلوم في الانفصال التدريجي عن الفلسفة...وكذلك، فعل الدين المسيحي، خاصة وهو الانفصال الذي انتهي بقطيعة (rupture) شبه نهائية بين العلوم والدين وبين الفلسفة.

وإذا كان البعض من ذوي النزعات العلمانية(Les scientistes) قد اعتقدوا أن ذلك الانفصال نهائي فإن الواقع الحالي للفلسفة قد تكفل بدحض إدعاءاتهم...

وذلك ما يؤكده انهيار الأسطورة العلمانية (Le mythe scientiste)، أمام مخاطر العلم الذي أدي بالإنسان إلي العدمية (Le nihilisme) وإلي الفوضى (Le désordre) وإلي الدمار الإنساني الذي يبحث اليوم عن مأزقه العلماني هذا بالعودة إلي الفلسفة[18].

من هنا فشل تلك الحملات[19] المضادة للفلسفة والمهونة من دورها في الحياة... باعتبارها بؤسا(misère) (كارل ماركس)، تارة، وكفرا تارة[20]، وهراء (العلمانيون) تارة أخري.

ذلك ما يؤكده، الاهتمام الجديد والمتزايد اليوم، بالفلسفة عامة، وبالفلسفة السياسية والأخلاقية، خاصة، من طرف الجامعات والمعاهد عبر العالم، ومن طرف العديد من المؤتمرات الفلسفية، التي اتخذت كمواضيع رئيسية لها "الفلسفة والديمقراطية" و"الفلسفة والتعددية السياسية والثقافية". وحقوق الإنسان" و"الفلسفة والسلام". والفلسفة والثورة الرقمية (La révolution numérique) ... إلخ.

إلا أن الفلسفة تختلف عن الإيديولوجيا، حيث أن الفلسفة تبقى من حيث فرضياتها قابلة للنقاش، غير أن المنظومات الفلسفية المختلفة، ولا سيما الأخلاقية منها، لا تكون في الغالب من التنظير التأملي للأخلاق الشائعة الدينية الأصل والمصدر. ولا نضرب هنا إلا مثلا واحدا هو فلسفة كانط الأخلاقية. فكل موضوعاتها، من حرية الإرادة، إلي خلود النفس، إلي وجود الله، ليست إلا دعما فلسفيا للأخلاق "[21]. إلا أن الفلسفة تبقى مفتوحة للجدل والعقلانية النقدية، وليس من الهرطقة في شيء أن نتصدى لمناقشتها، في حين أن الإيديولوجيا "فلسفة مغلقة"، لتختلط بالعقيدة والإيمان منحرفة نحو التعصب، يحوم حولها المؤمنون و المهرطقون معا. وليس من قبيل المصادفة أن تلح الماركسية علي اعتبار نفسها طريقة تفكير، وبحث أكثر منها عقيدة، وذلك في محاولة للتقرب من الفلسفة التي تتعالي في علي كل عقائدية. إذ سرعان ما هبط المؤمنون بالماركسية إلي مستوى العقيدة المغلقة، مبتعدين أكثر فأكثر عن الروح الفلسفية.

إن سلبيات وايجابيات كل من الإيديولوجيا ومن الفلسفة كثيرة وإن كانت ايجابيات الفلسفة، أكثر من إيجابيات الإيديولوجيا، حيث أن كلا من الفلسفة ومن الإيديولوجيا تمثل شكلا من أشكال الثقافة، خاصة السياسية والاجتماعية، السائدة في عصرها، وأن كلا منهما منشغلة بالهم الإنساني وبمستقبل تريده أفضل له من واقعه الراهن الميئوس منه. هذا بالإضافة إلى أن كلا منهما وليدة الفكر، فرديا كان (الفلسفة) أو جماعيا (الإيديولوجيا) جامد، أي دوغمائيا ومجمدا كان، أو محررا.

غير ما يعاب على كل منهما، أنهما يعملان علي تعميم تطرفهم وعلي مختلف مجالات سياسية واجتماعية وثقافية وعلمية وأخلاقية والعقائدية لهذا الواقع علي الناس، انطلاقا من اعتقادها بصدق نظريتهم هذه إليه ومطابقتها له، وقدرة تلك النظرة علي تمكينهم من استيعابه.

الهوامش:

1. F. Nietzsche : Ainsi parla Zarathoustra, Gallimard, Paris, 1965, P, 97.

2. CF. Simone Kof Sausse : Le miroir mythologique, édit Calmann- Lévy , Paris, 2010.
3. Cf. La mythologie grecque, divers ouvrages et divers éditions.
4. Cf. Vidal Naquet : Le miroir brisé, tragédie athénienne, édit Les belles lettres, Paris, 2002, p29.
5. د. فاضل الجمالي، الإيديولوجيا و الفلسفة، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد14 بيروت، 1980، ص6 و مابعدها.
6. D. De Tracy : Dissertations sur quelques questions d'idéologie, PUF, Paris, 1779, p31.
7. نبيل رمزي ، سوسيولوجيا المعرفة، جدل الوعي والوجود الاجتماعي، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، 2001، ص 18.
8. CF. R. Aron : L'opium des intellectuels, Gallimard, Paris, 1962.
9. CF. K. Mannheim : Idéologie et Utopie, trad. Franc. Edition, Rivière, Paris, 1956, p63.
10. CF. F. Engles : Lettre à Mehring, 14 Août, diverses éditions, Paris, 1893.
11. CF. Marx : Œuvres Philosophique, diverses éditions, Paris, 1970.
12. Cf. Maxime Rodinson :La sociologie et L'idéologie marxiste (diverses éditions).
13. Cf Hirschman (A): Les passions et les intérêts 1977, PUF, Paris,1980, p39.
14. Cf. K. Jaspers: Introduction à la philosophie, diverses éditions.
15. J. Meynaud: Les Attitudes politiques, Q.S.J? PUF, Paris, 1962, P, 102.
16. Cf. A. Lalande : Vocabulaire Technique et Critique de la philosophie, PUF, Paris, 1951.

17. د. زكرياء ابراهيم: مشكلة الفلسفة ،مكتبة مصر، القاهرة، 1960، ص54، 60.
18. _ البخاري حمانة: عن الفلسفة وعن الحرية في القرن الحادي والعشرين،(فلسفة الحرية)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009، ص377 ومابعدها.
19. البخاري حمانة: الفلسفة العربية إلى أين؟ كتاب مستقبل الفلسفة المعاصرة في الوطن العربي والعالم، دار الحكمة، بغداد، العراق،2000.
20. البخاري حمانة : دفاعا عن الفلسفة، مجلة الثقافة، الجزائر، العدد، 94، 1986.
21. فاضل الجمالي: الإيديولوجيا والفلسفة، مجلة الفكر المعاصر، بيروت، العدد2، 1980.